الفصل الرابع عشر

في هيئة المدافعة

ما أكثر تعب المدافعة وعذابها ليلوغ المحال فلربما نكون في غاية الاستعداد في التجهيزات المادية والادبية للمسير والمقاتلة ومع ذلك يلزمنا أن ننتظر مجيء الفرصة المناسبة فيثن الحسام المعلق في الحمالة من الكسل وتتنهد عضلات الذراع من عدم النشاط ولكن المدافعة هي أول خطوة للهجوم فيجب أولا أن نجرب كل واسطة ممكنة في خط المدافعة المتيقظ حتى تتحقق بالدقة والضبط حالة العدو ونعرف ترتيبات رجاله قبل أن نعمل تصميمنا ونبتدىء السير والهجوم وعليه فمدافعتنا كالتين المختفي في وكره من مدة وسيرنا هو كجمع الغيوم والضباب حوله والصعود الى السماء واني أشرح لكم قليلا حالتنا في خط مدافعتنا بعد موقعة (كنزان)

حاول جيش من العدو قوي مركب من ١٤ أورطه بيادة و٤ مدفع أن يهاجم بشدة وبأس موقعنا لاسترجاع (كنزان) باي قيمة وهي كلمة القائد (استوسل) ولكن كان تصميم استرجاعهم هذا بدون جدوى فلقد تقهقروا كثيرا للخلف نحو (شوانجتايكو) و (انتزولنج) في الشمال و(تايبوشان) و (لاؤتسوشان) وهناك انشأوا على طول الارتفاعات استحكامات مدافعة قوية مصممين على مقاومة أثبت من التي حصلت في (كنزان) أما نحن فقد استمرينا في موقعنا نفسه بالتمام كقبل مصممين

على ان لا نعطيهم ولا ذراعا من الارض التى احتللناها وكان خطنا ممتدا من (انتسولنج) فى الشمال الى (لواينشياو) و (كنزان) و(هوانجتينشان) و(تاشانجتن) فى الوسط الى (شوانجتينشان) فى الجنوب وكان آلاينا يلاحظ الارتفاعات الى الشمال الشرقى من (هوانجتيشوان) و (شوانجتون)

ولقد ابتدأنا فى أول يوم فى الحفر بالفؤوس واذا قابلناها مع اختبارنا فى (شانجشباتون) كنا فى هذه المرة قريبين كثيرا من العدو وزيادة على ذلك كان يلزمنا أن ننشئ استحكامات أقوى كثيرا لعلمنا ان العدو يريد أن يهاجمنا من وقت لآخر رغما عن هزماته العديدة عند محاولته استرجاع (كنزان) وكان الوقت لا يسمح بأن نصرح لعساكرنا بأى راحة بعد محاربتهم المستمرة الشديدة ولا يمكننا أن نترك أبوابنا مفتوحة الى اللصوص ليلا مهما كانت رغبتنا فى أراحة جنودنا فاحتياج الحالة الشديد لايسمح بالالتفات الى المشاركة فى الاحساس لتعبهم وكانت الجنود البواسل نفسها لا تفكر فى أى راحة اذ كانوا يحملون ليلا ونهاراً أكياس الرمل وعراقيل السلوك المتروكة فى (شنجشباتون) طول الطريق الحاد الصخرى أو بدون طريق بالمرة قابضين على جذور الحشائش أو على رؤوس الصخور فكانوا مهتمين بوضع الاستحكامات القوية فى أى دقيقة خالية بأسرع ما يمكن وموقعنا هذا كان على جبل حاد صخرى كالهيكل العظمى طالا على وديان جوانبها رأسية تماما وكانت لاتوجد أشجار لوقايتنا من الشمس ولا جداول مياه لترطيب أفواهنا اليابسة ولكن تسليتنا الوحيدة كانت رؤيتنا خلال الضباب الطوابى الموجودة على (لاوينشاؤ) والمتاريس الموجودة على

التلال والقمم القريبة وفكرنا أنه عما قريب سيرتفع الستار وتمثل حينئذ رواية حقيقية هائلة على المرسح ولقد تصورنا أيضا فرح حصول المعركة ببسالة ورغبتنا أن نضحى أنفسنا بها تماما حتى لا تبقى منا قطعة لحم وكانت هكذا الايام تنقضى فى أشغال شاقة وتخيلات مزعجة وعند ما يدخل الظلام ترى أقساما من أشباح سوداء تتساق التل فمن هى ؟ هى كانت جنود جدد آتون لتغيير الذين تعبوا من أشغال اليوم الشاقة - وهل كان من الواجب أن يشتغلوا ليلا ؟ نعم اذ أهم الشغل فى خط المدافعة ما يعمل ليلا لان طوبجية العدو تطلق عليهم نيرانها فى النهار ونحاول أن تعرف محل شغلنا وعليه فنجاح عملنا يكون مستحيلا فالتعويض شغل النهار نشتغل الليل وكانت الجنود بينما تنظر الى الدخان المنبعث من نيران معسكر العدو من بعد تحفر الارض وتكوم الاحجار وتحمل الرمل وتملأ الاكياس وتغرس الاوتاد لعمل عراقيل السلوك وفى أثناء الشغل كنا نحاول أن نعمل بدون غاغة أو قليلا على قدر الامكان وكان لا يمكننا حتى التدخين اذ ربما اشعال السيكارة يعطى فرصة للعدو لاطلاق نيرانه علينا وفى الساعة ٢ أو ٣ صباحا كنا لم نزل نشتغل بشدة رغما عن الامطار الغزيرة أو الانواء وكانت هذه حالة الجنود بدون تظلم أو حقد بل مفتكرون فى عمل كل ما فى وسعهم لوطنهم ومليكهم وبالحقيقة فانهم يستحقون التشكرات القلبية والمدح من الامة وكان قسم المهندسين يستريح قليلا فى ساعات فجر الصباح فقط حتى أن بعضهم كان يقف كتمثال و بنادقهم على اكتافهم محملقين بأعينهم نحو العدو واننا لا ننسى أيضا واجب الدية بانات الصعب الذين كانوا يتبسمون عند ما يكونون

معرضين الى ريح الليل قائلين انه لبرد فى هذه الليلة . ألا يوجد هجوم آخر فى الليل كالمعتاد ؟ وكنا لا نعلم محل وجود طوبجية العدو الحقيقى ولكنهم كانوا يطلقون على الوادى الذى نصبنا فيه نحن ضباط أركان حرب خيامنا كانهم كانوا متحققين من محلنا وأنى أتذكر تماما أن دانه كبيرة جاءت طائرة فى يوم ١٥ يوليو وفرقعت بصوت هائل ففتتت الصخور ورمت الحجارة ورفعت دخانا أصفر غاسقا وهزت الارض وكنا من قبل معتادين على دانات مدافع الميدان وهذه كانت أول مرة اختبرنا فيها دانة ضخمة كهذه ولقد استغربنا كثيراً لذلك ولكن من المحتمل ان العدو أحضر مدافع بحرية الى (لوانجوانتانج) وأطلق علينا بها والظاهر أن العدو لم يزل يبحث عن ايجاد فرصة لاسترجاع (كنزان) ولذا كان يرسل لنا بمهارة هذه الدانات بعيدة المسافة وكنا نرى دانات الشرابنيل بعد فرقعتها كالالعاب النارية ولكن حينما يكون الانسان تحت مطر النيران لم يكن مسرورا بالمرة وكان يوجد شيء واحد يحيرنا كثيراً وهو أنه في كل يوم وفى ساعة معينة كانوا يطلقون علينا دائما بمهارة خصوصية وكانوا يصوبون ذلك دائما نحو مكتب الرياسة حتى انهم أحيانا كانوا يحملونا خسائر غير منتظرة وكنا نفتكر طبعا أنه يلزم وجود بعض السر فى عمل العدو العجيب هذا وكان غير سهل معرفة الحقيقة ولكن بعد بحث طويل علمت لنا الحقيقة الغريبة الآتية

كان الصينيون معتادين فى سوق أبقارهم وأغنامهم الى التلول خلف خط قره قولاتنا ومن هناك كانوا يعطون اشارات من هذه المسافات البعيدة الى الروسيين وقانون اصطلاحات اشارتهم لبيان الاتجاه او الجهة التى يلزم

الاطلاق عليها كان بواسطة اظهار بقرة سوداء أو قطيع من الغنم او الخ واختبارنا في (شانجشياتون) أنذرنا تماما بأخلاق الصينيين هذه الخطرة وهي أنهم لا يتأخرون عن تقديم أرواحهم فداء للدراهم ولكن الآن لم يحاولوا المرور من خطنا بل كانوا يسوقون أنعامهم ببطئ الى طريق الجبل فكيف كنا نحلم بهذا العمل وطريقة حياتهم لنا عند عدونا ولكنهم جهلاء وذرية شعب طماع فهم يعرفون قيمة الذهب والفضة فقط غير مبالين بفوائد الامة أو الامم وأنهم لم يفكروا بالمرة عن سبب محاربة الروسيا واليابان في مزارعهم ولكنهم كانوا يفكرون فقط في الحصول على تعويضات الخسائر التي لحقت مزارعهم ومحصولاتها وفي الحقيقة يلزمنا أن نجازي هؤلاء المعتدين بشدة مع انهم يستحقون مرحمتنا زيادة عن بغضنا وان الدينار هو الاله الواحد الذي يعبدونه وانه حصل في يوم ٢٠ من الشهر نفسه أن بعض ضباطنا الكشافة تقدموا كثيراً في خط دوريات العدو وفاجأوا بعض صف ضباطهم وبعد ما أتم الضباط اليابانيون مأموريتهم بنجاح تقابلوا في أثناء رجوعهم مع ثلاثة أو أربعة من كشافة العدو فطاردوا الروسيين واجتهدوا في أسرهم الا أن الروسيين اطلقوا النيران على الضباط اليابانيين بكل جهد ويأس حتى تمكنوا من الفرار تاركين أحدهم في الخلف الذي أسره ضباطنا ورجعوا معه الى معسكرنا وهناك سئل الروسي الذي كان اونباشي بيادة كالمعتاد وكان ينحني مرارا متوسلا ان نترك له حياته واعدا أن يقول عن كل شيء يعرفه فما اتعسه ! وكنا نريد أن نعطيه جرعة صغيرة من وطنيتنا اليابانية وهي « ان الواجب اثقل من الجبل والموت أخف من الريشة »

وانا سمعنا أن جنديا يابانيا أسره الروسيون لتعاسة حظه فى بورت ارثورلم ينطق بشىء رغما عن تهديد ووعيد الجنرال الروسى الذى أزبد وارغى واكفهر وجهه واحمر من الغضب وبالعكس فان هذا الروسى اطلعنا على كل سر حربى يعرفه حتى يحفظ جسمه وروحه معا وعندما طلب منه أن يبين لنا ترتيب الجنود الروسية اشار اليها ووصفها بدون تردد قائلا ان فى اليمين يوجد ٢٦ جى آلاى سريعى الطلق وفى الوسط ٢٨ جى آلاى سريعى الطلق وفى اليسار ١ جى آلاى وعلم جراً وبتطبيق أجوبته على تقارير كشافاتنا شاهدنا صدق قوله بالتمام ولقد أخبرنا عن كل حقيقة التى ساعدتنا كثيراً ولكننا مع كل ذلك كنا نمقته لجبان غير مستحق أن يكون فى زمرة الجنود الصادقة الامينة وفى هذا الصدد اسمحوا لى أن أخبركم عن استنطاق جندى روسى أسر فى الليلة التالية لهجومنا على (كنزان) وكان مختبئا تحت صخرة كبيرة وكانت محادثتنا معه كالآتى

سألناه ما فكركم فى هجومنا ؟

جوابه كنا خائفين ومنتظرين فى كل لحظة أنكم تهاجمونا هجوما عنيفا

سألناه هل رؤساؤكم يمتنون بكم جيداً ؟

جوابه عند حضورنا الى بورت ارثور كانوا لطفاء وشفوقين علينا ولكنهم أخيراً تغيرت أحوالهم فاننا لم نستول على ماهيتنا فى مدة الثلاثة أشهر الاخيرة وخفضت مؤونتنا أيضا الى النصف لان الباقى جميعه يذهب الى جيوبهم الخصوصية

سألناه هل الذين هزموا فى (تانشان) رجعوا الى بورت ارثور ؟

جوابه لم يسمح لهم بدخول الاستحكام الاصلى وأمروا بالشغل فى الخط الاول وهناك يتغذون من البلاد المجاورة لعدم وجود مؤونة كافية لهم

سؤاله هل تعلم أن الكثيرين من أبناء جلدتك أرسلوا اسرى لليابان ؟

جوابه نعم أعلم ذلك إذ من بضع أيام فقط أرسل أحد أصحابى الى اليابان أسيراً

فكيف أن الضباط والقواد ينتظرون الاحترام والطاعة والخدمة الصادقة من التابعين لهم بدون أن يحبوهم أو يعتنوا بهم فانواع الخدامات الاخرى يمكن احرازها بطرق كثيرة ولكن خدامات الجندية الصادقة فى وقت الحياة والممات فى ميدان القتال متوقفة على حب الضباط لجنودهم كاولادهم والجنود تخدم ضباطهم كآبائهم وعند ما يستحوذ الضباط على ماهية جنودهم وينقصون مؤونتهم بدون شفقة بينما تكون الجنود فى شدة الاحتياج والتعب فكيف يمكنهم أن يحترموا ويحبوا ضباطهم وكيف ينتظر الضباط أن الرجال يموتون لاجلهم وهم غير شفيقين عليهم أما السبب فى أن الجنود الروسية كانت تنهب الاهالى البريئين فى كل مكان غانمين كل ثمين سارقين طعامهم وسابين نساءهم وبناتهم فيوجد له بعض توضيحات فى أقوال الاسير الروسى السابقة

وكانت أعمالنا فى خط المدافعة تزداد منعة يوما بعد يوم والروسيون مستمرين فى اطلاق قنابلهم تحت ستر الظلام وكانوا كلما هاجمونا ردوا على أعقابهم وكانت دانات المدافع تشق الهواء بدون انقطاع الا أن تصويبها

غير محكم وكنا نفكر انه لربما تفرغ ذخيرتهم بدون جدوى وكان رصاصهم يقتل أو يجرح صدفة وأنه لا يوجد سبب للتأسف في معركة شريفة ولكن اذا جرح أو قتل الانسان في خدمة مدافعة كهذه وفقد الفرصة المرغوبة وهي الاشتراك في موقعة كبرى ستكون بعد قريب فهذا شيء لا نستلذ به وكانت الكلمات الآتية تخرج من أفواه الجنود الجروحة في المدافعة « لا أرجع أبداً الى الخلف ولا أريد أن أرسل الى محطة الربط الطبية » وهي تدل جليا على أسفهم ولذا يمكننا أن نشاركهم في احساساتهم الشريفة بكل قوانا

الفصل الخامس عشر

المعيشة في المعسكر

كنا اعتمدنا على خيامنا كوقاية كافية على الاقل من المطر والندى ولكنها صارت في حالة تعيسة لانها قطعت من الارياح وأتلفتها الامطار وأننا مكثنا تحت تلك الخيام نحو الستين يوما أعنى من يوم نزولنا البر وكانت الحظوظ تعاكسنا عند ايجاد محلات أخرى اذ القرى الصينية قلما توجد بها منازل عديدة بل فقط ثلاثة أو أربعة مما هنا وهناك وهي غير صالحة بالمرة لسكن جيش كبير ولما كنا نمضي أحيانا ليلة تحت سقف منزل محتمين به من جو رديء كنا نشم دائما رائحة الخنازير والثوم الرديئة وهي عندهم كما لو كنا ننام فوق فراش الحرير في غرف مزخرفة في وطننا فكانت الخيام منازلنا المعتادة وكانت حالتنا بهذه الكيفية أحسن بكثير مما لو كنا ننام في المزارع الرطبة